الدرس الأول: دعوة للتفكر في خلق السماوات والأرض

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع ما قاله أول رائد فضاء يصعد إلى القمر، إنه رائد الفضاء السوفيتي الملحد، فعندما أصبح حول الأرض ونظر من نافذة مركبته فرأى بديع خلق الله في السماوات والأرض، فقال: ماذا أرى؟! أنا في حلم أم سُحِرَت عيناي، ثم يقول: في الفضاء يحل الليل بصورة مفاجئة، وبسرعة تقطع الأنفاس، وتعمى العيون بلا تدرج كما هو الحال على الأرض، وليل الفضاء الخارجي من أشد الأشياء السوداء التي رأيتها في حياتي، يقول: ثم تظهر الشمس فجأة، وتلمع كأنها ضوء صاعقة مبدّدة خلال ثوانٍ في وسط الليل الحالك، فلا تدرج في الفضاء، بل ثوان وأنت في ليل مظلم في أحْلك الظلمات، وثوان أخرى وأنت في نهار ساطع النور وهاج يبدد الظلمات.

فيا لها من نعمة، نعمة الشروق والغروب، والليل والنهار، التي أقسم الله ♣ بها في عدة آيات فقال:{**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (40) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ(41)**} [المعارج:40 - 41]، وقال:{**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)**} [الشمس:3 - 4]، ولك أن تتأمل مرة أخرى، في قائل هذه الكلمات الشيوعي الملحد؛ فالبرغم من بديع ما رأى خلال دورانه حول الأرض إلاّ أنه لم يَرد على لسانه سوى الذُّهول أمام عظمة الكون، ثم السكوت المطلق عن خالق الكون ومبدعه، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، فسبحان الله!{**مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (186)**} [الأعراف:186] {**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)**} [العاديات:6]، {**إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**} [إبراهيم:34].

إخوتي في الله، لو تفكرنا في الأشياء من حولنا، سنستدل بهذا الجزء

القليل على الكثير، مثل التفكر في السماوات والأرض، وكم فيها من عبر! وكم فيها من أسرار! وكم فيها من مواطن الإعجاز! والتفكر في الشمس والقمر والليل والنهار والأرض والجبال، وكذا التفكر في الكائنات الحية من حولنا، وأيضا التفكر في أنفسنا، أشياء وأشياء يمكن التفكر فيها، والغرض من هذا التفكر أن نصل إلى الغاية، وهي معرفة خالق هذه الأشياء.

تأمل - أخي في الله - تعاقب الليل والنهار بصورة معتدلة، وتفاوت الليل عن النهار، وكلٍ عن مثله، فلا ليل يشبه ليلا، ولا نهار يشبه نهارًا منذ خلق الله الخلق وحتى قيام الساعة، إن ذلك من أعجب وأبدع آيات الله الدالة على ربوبيته وألوهيته وحكمته{**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**} [فصلت:37]، {**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً (62)**} [الفرقان:62].

إن تعاقب الليل والنهار نعمة عظيمة؛ إذ هي تنظم وجود الأحياء على الأرض، من نمو النبات، وتفتُّحُ الأزهار، ونضج الثّمار، وهجرة الطيور والأسماك والحشرات، ومن شاء فليتصور ليلا بلا نهار، أو نهارًا بلا ليل، كيف تكون الحياة؟{**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(72)**} [القصص:71 - 72]، أما إنها لو سكنتْ حركة الشمس لغرق نصف الأرض في ليل سرمدي، وغرق نصفها الآخر في نهار سرمدي، وتعطلت مع ذلك مصالح ومنافع، ومن عاش في المناطق القطبية بعض الوقت عرف نعمة تعاقب الليل والنهار؛ إذ يبقى النهار لمدة ستة أشهر، والليل كذلك،{**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(73)**} [القصص:73].

وتأمل - أخي الكريم - كيف جعل الله الليل سكنًا ولباسًا؟ يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي إلى بيوتها الحيوانات، وإلى أوكارها الطير والحشرات، تستجمُّ فيه النفوس، ومن كَدِّ السعي والنَّصَب فيه تستريح، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وَسُبَاتها وتطلَّعت إلى معاشها جاء فالق

الإصباح سبحانه بالنهار يقدُمه بشير الصباح، فيهزم الظُلْمَة ويمزِّقها كل مُمَزَّق، ويكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون. فينتشر الحيوان، وتخرج الطير من أوْكارها لتطلب معاشها ومصالحها. فيا له من معادٍ ونشأة دالة على قدرة الله على المعاد الأكبر،{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ (18)} [الحاقة:18] (85).

قال أحد علماء الفلك الكفار عندما نظر إلى السماء من خلال منظار بَنَاه بنفسه، فرأى ما أذهله في هذا الكون : إن الإنسانية لن تنتهي من اكتشاف أسرار الكون، ولن تعرف من الكون إلا مقدار ما نعرفه من نقطة ماء في محيط عظيم. فهل آمن مع ذلك وصدَّق؟ لا، وصدق الله{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: 7].

وقال آخر أيضًا: إن وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة وعشوائية، بل هي موضوعة في الفضاء بدقَّة وإتقان؛ إذ أن القمر لو اقترب من الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأغرق مدُّ البحر الأرض كلها، وما علاقة القمر بالبحر؟! الله يعلمها الذي قال وصدق:{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53].

ثم تعالَ معي نتفكر في هذا الكون بسماواته وأرضه وأحيائه، متأملين، متدبِّرين{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة: 164].

تأمل السماء، انظر فيها وفي كواكبها، دورانها، وطلوعها، وغروبها، واختلاف ألوانها وكثرتها، وشمسها وقمرها، باختلاف مشارقها ومغاربها، حركتها من غير فتور ولا تغير في سيرها، تجري في منازل قد رتِّبت لها بحساب مُقدَّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها.

تأمل تجد أنه ما من كوكب ولا نجم إلا ولله في خَلْقِه حِكْمَة، في مقداره، وفي شكله، وفي لونه، وفي موضعه في السماء، والكواكب

والنجوم كلها تسبح في السماوات التى رفعت بلا عمد فوقها ولا عمد تحتها{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [لقمان: 10]{وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: 65]، والإنسان العاقل أمام بديع صنع الله في سماواته يتوقف طويلا حائرا مما يراه، فما يملك إلا أن تخشع جوارحه، وتخضع، وتذل، وتستجيب، فتَقْدُر الله حقَّ قَدْره، وتفرده بالعبادة وحده لا شريك له.

ويقول أحد كبار علماء الفلك وهو يهودي: أريد أن أعرف كيف خلق الله الكون، أريد أن أعرف أفكاره، الله بارع حاذق ليس بشرِّير، الله لا يلعب بالنرد مع الكون، تعالى الله، وجلَّ الله{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ} [غافر: 81] فكيف لو اطلع على ما جاء في القرآن، لربما كان من المؤمنين حقًا. نعم، الله لا يلعب مع الكون، ♣، فهو القائل:{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ(17) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(18)}} [الأنبياء: 16 - 18].

معاشر الإخوة، ما الأرض بالنسبة للكون إلا كحبة رمل في صحراء عظيمة تسير في مسار حول الشمس دون أن يصطدم بها ملايين النجوم، والكواكب المنتشرة في الكون، ولا يزال علماء الفلك يكتشفون من خلال تجاربهم ومراصدهم ومناظيرهم كل يوم ما يدهش العقول في هذا الكون الفسيح، فمنهم من رأى المجرات الصغيرة وهي تتألف من عشرة ملايين نجم قد عُرف منها ما عُرف، نعم، لقد رأى مجرتنا درب التبانة، وقد تألفت من مائة مليار نجم، قد عُرف منها الشمس، وتبدو هذه المجموعة كقُرصٍ قُطرهُ تسعون ألف سنة ضوئية، وسمكه خمسة آلاف سنة ضوئية، ومع هذا البعد الشاسع فإن ضوء الشمس يصلنا في لحظات، وكذلك نور القمر. بل قد رأى هناك مجرات تكبرها بعشرات المرات، أحصى منها مائة مليار مجرة تجري، كلها في نظام دقيق بسرعة هائلة، كلٌ في مساره الخاص دون اصطدام، كل يجري لأجل{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً} [الفرقان: 61]، هذا الذي رآه، وما لم يره أكثر، فقد قال الله ♣ :{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لاَ

تُبْصِرُونَ(39)} [الحاقة: 38 - 39].

والله عز وجل ما خلق السماوات والأرض عبثا، بل خلقهما لحكمة بالغة، يقول الله تعالى:**{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}** [ص:27].

أخي في الله، لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله سبحانه وتعالى تدبر شؤونهما، لاختلَّ نظامهما، فتنزَّه الله رب العرش، وتقدَّس عَمَّا يصفه الجاحدون الكافرون، من الكذب والافتراء وكل نقص (59).

وصدق الله تعالى حين قال:**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}** [الأنبياء: 22]، وصدق الشاعر حين قال:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــه ولله في ::: أم كيف يجحده الجاحد كل تســـكينة
كل تحريكة وفي وفي كل شيء له آية ::: أبداً شاهد تدل على أنه الواحد
:::

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *